**جزيرة جربة والطريق الروماني القنطرة**

**طاهر دغس**

# تقديم عام

يمكن إدراج هذا النصّ ضمن الأدبيات الاستعمارية أو أدب الرِّحلات وهو نوع من الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء سفر- رحلة قام بها إلى إحدى البلدان. وتُعدّ كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ثريّة وممتعة. ويمكن أن يندرج عدد كبير من الروايات والقصص بصورة ما تحت مسمّى أدب الرحلات. فهذا الأدب قادر على احتواء أعمال

(ابن بطوطة)[1] و(ماركو بولو)[2] و(تشارلز داروين)[3] و(أندريه جيد)[4] و(إرنست همنجواي)[5] و(نجيب محفوظ)[6]، رغم التباين الكبير فيما بينهم؛ لأن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها، الرحلة الزمانية أو المكانية أو النفسيّة.

لقد نشط أدب الرحلات أساساً على أيدي الجغرافيين والمستكشفين الذين اهتموا بتسجيل كل ما تقع عليه عيونهم أو يصل إلى آذانهم حتى لو كان خارج نطاق المعقول، ويدخل في باب الخرافة. وبالإضافة إلى تسجيل رحلات الرحالة، هناك نوع آخر من أدب الرحلات هو القصص الخيالية

1- أبو عبد الله محمد ابن بطوطة، والذي عُرف أكثر باسم بن بطوطة( 1304 - قرابة 1377 م) يعد من أعظم الرحالين، كان وهو معروف بقصص رحلاته واستكشافاته. كتاب رحلة ابن بطوطة، المسماة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ومؤلفه يُعرف: انطلق بن بطوطة في رحلته هذه، مدفوعاً بسعيه نحو المغامرة والمعرفة، ولم يكن يبلغ سوى واحداً وعشرين عاماً.

وكان مقصده في البداية هو الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. إلا أن الرحلة امتدت لما يصل إلى ثلاثين عاماً. في تلك المُدّة، امتدت رحلته لتغطي معظم ما يُعرف بالعالم الإسلامي وما وراءه تقريباً: من شمال وغرب إفريقيا وجنوب أوروبا وشرقها في الغرب، إلى الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية وآسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا والصين في الشرق، وهي مسافة هائلة تخطت تلك التي غطاها من سبقوه أو الرحالة المعاصر له في ذلك الوقت، ماركو بولو. عندما عاد ابن بطوطة إلى المغرب أخيراً في خمسينيات القرن الرابع عشر، وكّله السلطان أبو عنان فارس، سلطان المغرب، ليقوم بسرد رحلاته في كتاب. فأملى ابن بطوطة حينها قصته على الشاعر ابن جزي الكلبي ليكتبه.

2- Pierre Racine, *Marco Polo et ses voyages*, Perrin, 2012 ; The New Encyclopædia Britannica Macropedia, *Marco Polo*, Britannica Editors, 2002

رحلات ماركو بولو: وهي وصْف التاجر البندقي ماركو بولو (حوالي 1254–1324) لرحلاته في آسيا الوسطى والشرق الأقصى خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عشر. والمخطوطة قد تكون إحدى خمس مخطوطات متعلقة برحلة ماركو بولو تعود ملكيتها للملك تشارلز الخامس ملك فرنسا (حكم في الفترة ما بين 1364–1380). سافر ماركو بولو براً إلى الصين بين الأعوام 1271–1275 برفقة والده نيكولو وعمه مافيو. ثم أمضى 17 عاماً في خدمة قوبلاي خان (121–1294)، حفيد جنكيز خان وغازي الصين، حيث أدّى مهمات من أجله في الصين بالإضافة إلى شمال آسيا وجنوب شرقها. عاد البندقيون الثلاثة إلى مدينتهم الأصلية عبر البحر في الأعوام 1292–1295. وسريعاً ما انخرط ماركو بولو في الحرب التي نشبت بين البندقية وجنوا، حيث جهز إحدى سفن القادس وقادها في أسطول البحرية البندقية. وأسره الجنويون في عام 1296. أملى ماركو بولو أثناء وجوده في السجن قصص رحلاته، وفقاً للعرف، على أحد رفاقه في الزنزانة، وهو روستيكيللو دا بيزا، الذي كتبها باللغة الفرنسية القديمة. لا تُعتبر قصة ماركو بولو مجرد تسجيل بسيط للرحلة، بل وصفاً للعالم-خليطاً من تقرير عن الرحلة وأساطير وإشاعات العمل مقدمةً مهمة للأوروبيين لمعرفة تاريخ وجغرافيا آسيا الوسطى والصين.

3- Patrick Tort, *Dictionnaire du darwinisme et de l'évolution*, Paris, Presses universitaires de France – PUF, 1998.

شارل روبرت داروين (1809–1882) هو عالم حيوان وتاريخ طبيعي اشتهر بنظريته مبدأ التطور والانتخاب الطبيعي حول نشأة الإنسان.

4-أندريه جيد (1869 - 1951) كاتب فرنسي، من مؤلفاته اوديب وثوسيوس.

5- أرنس ميلر همينغوي (1899–1961) أهم الروائيين وكتاب القصة الأمريكيين.

6-نجيب محفوظ (1911–2006)، أول عربي حائز على جائزة نوبل، تدور أحداث جميع رواياته في مصر.

الشـعبية مثل: السـندباد الذي يُعد رمـزاً للرحالة المدمـن للرحلة، والقصص الأدبية مثل: قصة ابن طفيل عن حي بن يقظان.[1]

وتعدّ الملاحم الشـعرية والأدبية الكبرى في تاريخ الإنسانية كذلك من أدب الرحلات، مثل: (ملحمة الأوديسة) الإغريقية[2]، و(ملحمة جلجامش) البابليـة[3]، وغيرها؛ لأن هذه الملاحم تنبني في جوهرها على حكاية رحلة يقوم بهـا البطل لتحقيق هدف معـيّن، وقد تنبني تلك الرحلات الأسـطورية على بعض الوقائع التاريخية أو الشـخصيات الحقيقية في عصر ما، ثم يترك الشاعر لخياله العنان؛ ليخلق الملحمة التي هي خلاصة رؤية المجتمع لقضاياه الكبرى في مرحلة زمنية معينة.

لقد كان لفقدان فرنسا خلال القرن الثامن عشر مستعمراتها في أمريكا والهنـد إثر صراعها مـع إنجلترا، دور بارز في محاولتها مع مطلع القرن التاسـع عشر تعويض مـا فقدته لإعادة بناء إمبراطوريتها الاسـتعمارية فقامت باحتلال بلدان المغرب لقربها جغرافيا ووفرة مواردها الطبيعية واتساع سوقها التجارية.

لقد كانت الأدبيات الفرنسية المتعلقة باحتلال بلدان المغرب لتختلف من فترة إلى أخرى حسـب تطور موازين القوى وحسـب خصوصية الظرفية. وكانت صورة المغاربي-الجزائري خاصة- لدى المسـتعمر الفرنسي تجمع بين العنصريـة والاحتقار والتحـدي فهو أحيانا متوحش وطـورا متخلف وأحيانا

1-أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل الأندلسي القيسي (1100-1185)، كان فيلسوفا وطبيبا وفلكيا وقاضيا ومفكرا.
رسـالة سـمّاها رسـالة حي بن يقظان. تحكي قصة شخص يدعى حي بن يقظان نشـأ في جزيرة وحده وترمز للإنسان في علاقته بالكون والدين هي أسطورة.

2- Alexandre Farnoux, *Homère, le prince des poètes*, Paris, Gallimard, 2010. Paul Demont, *L'Iliade et l'Odyssée*, Chêne, 2005.

هي ملحمة شعرية وضعها هوميروس في القرن 8 ق م تتكون من 24 جزءا:
الأوديسـة هي الملحمة التي خلدت اسـم هوميروس أكثر من الإلياذة هي قصة عودة المحارب أوديسـيوس إلى مملكته إيتاكا بعد حرب طروادة. رحلة طويلة مليئة بالمتاعب والمغامرات اسـتمرت عشر سـنوات، مع أن جزيـرة إيتـاكا في بحر إيجة أي على مرمى حجر من طروادة. الرحلة التي قام بها أوديسـيوس حول البحر المتوسط كله، كررها أحد الباحثين الفرنسيين وهو فيكتور بيرار وبدلا من أن يحمل خريطة ملاحية، حمل الأوديسة نفسها ودهش حين وصل إلى الأماكن التي زارها أوديسيوس بدقة بالغة.
3- ملحمـة جلجامش عُثر عليها مجزأة في مكتبة ملك أشـور «أشـور بانيبال» (669 - 629 ق. م) مسـجلة عـلى اثني عـشر لوحًا. إن هذه الملحمة هي أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في جميع الحضارات، وأنها أطول وأكمل ملحمة عرفتها حضارات العالم القديم، وليس هنالك ما يقرن بها أو ما يضاهيها من آداب الحضارات القديمة قبل الإلياذة والأوديسة في الأدب اليوناني، وقد ظهرت هاتان الملحمتان بعدها بثمانية قرون.

أخـرى مهزوم ومهزوز، كما يوصف أيضا بالثائـر والمغامر والمتعطش للدماء خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

النـص وهـو عبارة عـن 11 صفحـة مـن 79 ص إلى ص 90 أخذ من أرشـيفات إدارات تارن وقارون وأكاديمية مونتوبان[1] الذين وفروا للمكتبة الوطنية الفرنسية أجزاء لرقمنتها.

مأخوذ من مجلـة « BULLETINS DE LA SOCIÉTÉ ARCHÉOLOGIQUE DE TARN-ET-GARONNE » أسّسها الكاهن فردينان بوتي في 1866 وكان هدفها حصر التراث المحلي ودراسته وحمايته وتقديم الدراسات للعموم. وكانت أول نشريه لها سنة 1869 وقد أصبحت سنوية منذ 1877 إلى حدود 2007 [2].

وردت تسميته بصفته البارون[3]- البارون لقب نبيل أرستقراطي في الأنظمة الملكية الإقطاعية وقد فقد كل قيمته وأصبح مجردا بعد حكم نابليون- وهو مهندس جسور وطرقات وعضو من بين 45 عضوا مقيمين في موتوبون.

## النصّ

### جزيرة جربة والممرّ الروماني «القنطرة»

تتمتّـع جزيرة جربـة في مخيال الناس بهيبة شـاعريّة. بعض أهل الفكر أراد أن يشـبهها بجزيرة «اللوتوفـاج». بلد الوفرة، مكسـوّة بالجنان ومليئة بالغلال حلوة المـذاق، وهي تكفي مؤونة الناس. كان هوميروس قد ترك لنا في الأوديسـة وصفا بديعا لها. لم تنقص أهـل الشرق قطّ المخيّلة. لقد كان لديهم دائما اسـتعداد ملحوظ لإعطاء خيالات عقولهـم الخصبة جانب الإثارة الذي يجعلها مقنعة. كانت أسـاطيرهم كثيرا ما أخذت طابع الحقائق محدثة في بعض الأحيان شـوقا عنيدا. كان للأسـطورة منذ القديـم طوائفها والتي لا نفهمهـا دائـما في العصر الحديث، رغم أنها كانت ببسـاطة عصارة وضعيّة روحيّة والتي غيّرت على الأغلب موضوعها.

1–Les Archives départementales, la Société archéologique de Tarn–et–Garonne et l'Académie de Montauban.

2– BULLETINS DE LA SOCIÉTÉ ARCHÉOLOGIQUE DE TARN–ET–GARONNE 1869–2007

3–Éric Thiou, *Dictionnaire des titres et des terres titrées en France sous l'Ancien Régime*, Editions Mémoire et Documents, Versailles, 2003, p. 270.

عندمـا يكون من الممكن الذهاب إلى المصـادر والتثبّت، قد لا يبقي غير الأسـطورة وشـعريتها المفضّلة، التي تعلّـل التصوّرات ولا تنـوه بها. إنّ الشـكّ يكون شـديدا عندما نكون منقادين للتفكـير في رواية قادمة من الشرق المتوسطي، مهما كان المصير المقدّر لها.

إن زيارة لجربة تختزل بمسـتويات جـدّ متواضعة روعة الحدائق والجنان الحالمة لهميروس. فالجزيرة منبسـطة وقليلة التضاريس فوق المياه، نراها تبرز في الأفق كأنها شريط من الخضرة، لكننا نستطيع شقها مهما كان الاتجاه بدون اعـتراض أجمة ملتفة، فحجـم الخضرة هو نتيجة تراكب- المشـهد الأمامي- أشجار متناثرة تنبت في كل ناحية دون نظام وعلى غير منهاج في كامل أنحاء الجزيرة. هذه الأشـجار تتمثل أساسا في الزياتين والنخيل. الزياتين قديمة جدا، كثـيرة العقد وعجفاء وغير مثمرة. لم يعتنوا بها مطلقـا، كان ظهورها يبدو غير ملائـم عندما نقارنها بالأشـجار الجيّدة والمنتظمة والمعتنـى بها والتي تمثل في صفاقـس حزاما كثيفا قطره حوالي 40 كلـم، لقد فكرنا بأنّها أنهكت بالزمن وبأنّها معاصرة للفترة الرومانية.

نتسـاءل بديهيّا إن لم تكن هذه الأشـجار آخرما بقي حيّا من النباتات القديمـة والتـي كانـت مزدهـرة. قـد يكون ممكنـا ولكـن بالأحرى مشـكوك في ذلك، لأننـا لا نرى بقايا نباتات قد ذكـرت كثيرا. بيّنت التجربة الصفاقسـية أنّه في ظلّ هذا المناخ ولكي يتوفر لشـجرة الزيتون نباتا حسـنا، يجب تهيئة خمسة وعشرين مترا من الأرض الجرداء في كل الاتجاهات ما بين الأشـجار، وإعداد الأرض بالحراثة المكثّفـة. إنّ النباتات في صفاقس باصطفافهـا المثير إلى غياب النظر على كلومـترات طويلة حتى حدود الأفق، تعطي الإحساس بوجود طريقة منظمة تحدث إعجابا صامتا في غالب الأحيان عند الزائر القادم لأوّل مرّة، أن يتأمّل هذا الثراء الناجم عن مجهود رائع.

لا شيء مثلا قد يفهم في جربة، سنرى الحقائق أكثر بعدا. تعطي أشجار النخيـل بالجزيرة ثمارا قابلة لـلأكل، لكن إذا ما وجب علينا النظر إلى التمر عـلى أنّه اللوتو الذي كان يكفي لتغذية السـكّان والذي اعتبر شـهيّا من طرف مرافقي علّيسه. يجب الاعتقاد أن الإغريق لم يكونوا محاطين علما بجودة التمـور وأنّهم كانوا يجهلون ثمرة الصحراء، لأنّه يوجد فارق معتبر في الذوق

بـين التمرة التي تنضج على أطراف البحر، في أجواء رطبة، على أرض ليسـت مسقية، والتمرة التي تنضج في الصحراء في جو جاف جدا، وعلى أرض أتخمت بالماء عن طريق الريّ. فالتمرة الرقيقة والحلوة التي نتناولها كثيرا بأوروبا مقابل الثمـرة المحفوظة، رغم أنّه لم يطرأ عليها أدنى تحضير وقد قدمت من الواحات الصحراوية. والنخلة التي تحملها تعرف باسـم دجلة النور، إنّه صنف حسّاس، فالثمـرة لا تنضج إلا في نوفمبر، الثمرة لا تنضج إلا بعد أن تمرّ بحدّة الصيف الصحراويّ، تمتصّ الشـجرة بواسـطة جذورها كمية معتبرة من الماء ولكن إذا مسّـت الرطوبة الثمرة فهي تصاب ولا تنضج. عندما يحدث عرضا مطر في سـبتمبر أو أكتوبـر، إنها الكارثة، حيث تتلف صابـة التمور. لقد واكبت الحدث مرتين.

نستطيع أن نجرّب غرس دجلة النّور في أطراف البحر، سوف لن تعطي شيئا في الجوّ الرطب على الساحل، الذي هو ليس حارّا أو رطبا كفاية لينضج هـذه الثمار. الشـعوب على التخوم الصحراوية متسـمّرة منـذ القديم على هذا الموضـوع وقد حاولوا التجربة ولم يلقوا إلاّ الإخفاق. النخيل السـاحليّ والذي يكـون في بعض الأحيان قويّـا، هو من النوعيّات الخشـنة، يعطي تمورا ذات جودة متدنية جدّا كنخيل جربة.

لنرى قليلا الآن الارض والسّـكان. تمتد الجزيرة على خمسـة وعشرين كلم حسـب خط طوليّ أو متواز. يتجاوز سـكّانها عشرين ألف سـاكن، منتشرون على كامل المجال، في القرى، الأكواخ والمنازل المنعزلة. يسـكن كلّهم منازل مـن حجارة. الرّجال هم فلاّحون وصيّـادون وخزّافون (خزف قلاّلة معروف على الساحل). النساء يغزلن الصّوف ويصنعن البرنس والأغطية التي تباع في أسـواق تونـس كافة. المنازل القرويّة ضيّقـة ومقببة. لا يمتلك أكثر السـكّان إلاّ غرفة واحدة عرضها متران وخمسـون سـنتمترا على طول ما بين سـتة إلى ثمانية أمتار. باب وبعـض النوافذ الضيّقة جدّا كالكوات. لا توجد عارضات، لا توجد سـقالة، لا غطـاء للشرفة، غير المرش والملاط, بناء خشن. إنه سكن المستقرّين حيث خشب السقالة مجهول لديهم.

يكفي التفكّر أمام آثار البناء التي سميناها كثيرا آثارا رومانيّة والتي نجدها في كل مكان من الأرياف التونسية حتى نتعرّف إلى تخطيط للأسس

مشـابه لمنازل جربة. كان لإفريقيّة في زمن يوغرطة سكّان رحّل ومستقرّون كما هو اليوم. فالرحّل يعيشـون تحت الخيام المنسـوجة مـن وبر الجمل كما هو اليوم. المسـتقرّون سـكنوا في البيوت الحجريّة الضيّقة كما هو اليوم عند سكان جربة. تظهر لنا البوادي بجربة صورة نعتقد أنها وفيّة للبوادي الإفريقية منذ ألفي سـنة أو أكثر بقليل، مع الفوضى الخلاّبة لأشجار النخيل والزياتين والبيـوت الصغيرة دون أن ننسـى الطـوابي التي تمثل الحـدّ الطبيعي للحدائق والزراعات وهي منحنيات مبنية بالطّين، منحدرة ومحاطة بالصبّار.

حافظ السـكان أنفسـهم على المظهر الخارجي لذلك الزمان. يعرف الذي ألف شـمال إفريقيا من النظرة الأولى البربر، كما هو في صفاقس وقرقنة. مرّت الغزوات العربية بهذه الشـعوب، أساسا المستقرين منهم، دون ترك آثار عرقيـة. لقد انتشروا بعيدا في البلدان العشـوائية أين تتطابـق جيدا مع الطبيعة الرعويّة والكسل المتأصّل في مقاتليهم.

اذهبـوا إلى نزل صفاقس. اُنظروا إلى الفسيفسـاء الرومانية، المجلوبة من مقـبرة طينة، الملاصقة جدا، والتي نقلناها إلى هذا المعلم الأنيق لنجعل لقاعاتها بلاطات جميلة ولجدرانها واجهات مزيّنة هامة. سـترون فيها رسـوما ذات ذوق أنجـزت بفعل مكعبـات حجرية ملوّنة بدقّة لشـخصيات في ذلك العصر، كانوا يلبسـون نفس اللباس الذي يلبسه القرويون في بوادي صفاقس وأهل جربة اليوم.

لا شيء أيضا قد تغيّر في المظاهر. يمكن أن نشاهد الماضي بفارق ألفي سـنة. لقد صبّ الإسـلام في عقول القدريّة أفيون الحيـاة الداخلية، ضدّ كل تطور. يمكن أن نتأمّل في جربة درسا للفلسفة.

الجزيـرة مفلّحة كثيرا، في البسـاتين، المسـيّجة بطـوابي، نجد من بين أشجار الياسمين الورد والعبقر والخوخ واللوز والمشمش والتين وأنواعا متعددة من التين بباقات أزهارها دون شذب، والتي تنتج عنبا كثيرا.

ينضـج الشاسـلا في نهاية شـهر جوان، ثـم تنضج بعدهـا كل أنواع المسكي البيضاء: الوردية، السوداء وأخيرا العنب الإفريقي بعناقيده الكبيرة وبحباته ذات الجلد الغليظ وهي كبيرة الحجم تشـبه البرقوقة، وهي تنضج في أكتوبر ونوفمبر. يمكن ان نأكل العنب في تونس طيلة خمسة أشهر.

أحتفظ بذكرى مثيرة مع شيخ المحبوبين الذي أهدى لي يوما ما سلّة من المسكي المذهّب، ويبدو أن أوّل غرساته جلبت إلى جربة عن طريق التطعيم، حيث كان يختفي لصّ صغير في الحديقة الخاصة بإسطنبول. كان السيّد الأعظم قد منع إنتاجا للعنب الإمبراطوري حيث كان لا يريد تعميم استهلاكه. كان شيخ المحبوبين، المشبع بالاحترام الكبير لهذه الفاكهة الرفيعة، لا يسمح بأخذ تطعيم من نبتة واحدة من الكرم، وكان يتخذ مثاله من كبار الأتراك، ولكن عندما كان يريد إبراز موقفه من شخص كان يهديه سلة من العنب عالي الجودة.

آه ما هذا المسكي ...، إذا لم أكن مركزا على التوريد الحديث على المشاتل واذا كنت قد استطعت أن أقبل أنّ العنب كان ينتج في الماضي طيلة السنة كما هو الحال اليوم بالنسبة إلى البباز والرمان المداري (بعد كل شيء، في زمن الأوديسة) لم أكن أتردد في أن أعرّف هذه الشجرة باللوتو الذي أثار غنائيّة هوميروس.

نجد في كل أنحاء أرض الجزيرة، على عمق 12 و15 و20 م، جيوبا مائية عذبة. لا أحد يقول بنهر جوفي لكن لن أفتح الجدال في هذا الموضوع المستهلك. تخترق عديد الآبار هذه الجيوب وهي مجهزة ببنية رائعة بدائية، خشنة التركيب، وتسمح باستعمال حيوان يكون في أغلب الأحيان جملا لغرف الماء.

الآلة بسيطة وقويّة ومركبة ببراعة ولكن لن أقوم بوصفها لأن ذلك سيتطلب دقة كافية حتى تكون مفهومة. الماء المرفوع في القربة (من جلد الماعز)، يصبّ في حوض مبني، وعندما تكون الكميّة كافية، نفتح سكرة صغيرة ويقاد الماء بواسطة جداول مبنيّة في بعض الأحيان فوق حاشية الزراعات: فول، عدس، لوبياء، بطيخ، دلاع، طماطم، باذنجان، خيار، لفت، جزر وبعض الخضروات الأخرى التي يستهلكها الجربي بكثرة.

الماء الباطني ليس صالحا للشراب ولا لطبخ الخضروات. إنّه عذب بشكل كاف لبعض الزراعات ولكن ليس تماما بالنسبة إلى شجرة البرتقال التي يكون تماسكها في الملح الكلسي عالي الارتفاع. ولتحقيق الاكتفاء الذاتي المنزلي انتشرت بالجزيرة أيضا أحواض قديمة تستقبل مياه الأمطار

في مساحات مكشوفة. نرى أوّلا وعاءا مبنيّا بشكل تام، يلتقي في ميلانه بحنجرة. الحوض الأرضي في شكل قارورة قطرها ضيّق، تغلق فتحة الإناء في العنق، جلّ الأحواض ذات بناء حجري غير تام، لم تكن محكمة السدّ، كان المستغلّون الخائفون على ضياع الماء قد تخلّوا عن صيانتها. وكانت مصلحة الأشغال العمومية لسلطة الحماية قد رمّمت منها عددا كبيرا. أتذكّر أنّ هذا العدد كان قد بلغ 160 في الفترة التي غادرت فيها مضطرا تونس عائدا إلى فرنسا لدواعي صحية. كما بنينا لنفس الأسباب أحواض جديدة أكثر شساعة في أطراف التجمعات السكنية الكبرى. إنّ تزويد المتساكنين اليوم بالمياه العذبة مضمون رغم شحّ الأمطار. لم تتجاوز قط التساقطات الجويّة في جربة 200 مم في السنة، ولكن كلّ هذا لا يعدو أن يكون سوى تحسين الطريقة القديمة باستعمال التقنيات الحديثة تحت تصرّف المجهود الجماعي. تقودنا دراسة الحياة الجربية في عموميتها أيضا إلى التفكير في أنّ هذه الجماعة الخاضعة للأرضها، قد حلّت منذ القديم مشكلة الاستفادة من موطن صعب بشكل كبير بوسائل بسيطة.

هذا الدرس الفلسفي المدروس مسبقا، يتواصل بفصل يهتمّ بالمواظبة. نتصوّر الآن بأنّ هذا البلد المجزأ- حيث يبرر الاستغلال تناثر المنازل والآبار والأحواض- ليس جاهزا لغراسة الأشجار التي تتطلب مجالات شاسعة مثل الزيتونة.

احتلّ الرّومان وأيضا الأتراك الجزيرة. ارتكن فريديريك بربروس والقرصان خير الدين إلى السواحل حيث المعارك الطاحنة. كل هؤلاء الغزاة قد تركوا حصونا ضخمة نسبيا والتي تشهد على سيطرتهم. كان الساكن المحلي قد عانى منهم. كان يراهم دون شك أحياء بفضول أكثر منه رغبة، وانظر إليه هو دائما نفسه، يمر يوميا، الوردة فوق الأذن بالطريقة البربرية القديمة، عيون حلوة وصافية، الشفة جذابة. ساقاه عاريتان مصقولتان من الشمس، تبرزان من سروال قصير ظم تحت الركبة. غطّ بدنه بمعطف أصهب له شريط مضفور بالأبيض، نسجته زوجته غليظا على أدوات قديمة. مرّ رجل مشابه من قبل بنفس الطريقة أمام الجندي المسلح القادم من قرطاج، جندي الفيلق القادم من روما، الفارس المتباهي القادم من بلاد العرب، الانكشاري القادم من إسطنبول، قرصان البحر الذي كان يتبع بربروس، كل هؤلاء الرجال الأشداء يتكلمون بعلوّ طلبا للمال والقوّة، لقد فرضوا

إرادتهم بالسيف «بالسيف»، كما نقولها اليوم على السواحل الأفريقية كحجّة قاطعة. لكنّ القرويّ الوجل والمستسلم كان يحمل في ذاته القوّة الهادئة للمستقرين العنيدين، أكثر حيويّة من تراكم المجموعات البشرية. إنّه وحده الذي داوَم.

الآن وقد ألقينا نظرة سريعة ودقيقة في خصائص حياة الجزيرة، كخصوصية تقوم على الديمومة، سنحاول فهم الدرس الروماني. لقد فعل الرّومان ما لم يفعله إلى حد الآن الفرنسّيون، لقد وصلوها باليابسة عن طريق ممرّ يمتدّ لسبعة كيلومتر طولا. قد قلت سابقا أن الجزيرة تمتد على سبعة كيلومتر من كل الاتجاهات: جهتها الجنوبية تنتهي من جهة الغرب برأس أجيم، ومن جهة الشرق نجد القنطرة. هذان الرأسان يعترضان مرتفعين بريين يحاصران بحيرة داخلية «بحيرة بوغرارة» التي تساوي أبعادها ومساحتها جربة.

لدينا انطباع غريب أو بالأحرى خارق للعادة بأنّ الجزيرة كانت في البداية مندمجة في باليابسة ثم انفصلت وابتعدت 25 كلم شمال موقعها القديم نتيجة تشنّج جيولوجي. مضيق أجيم بالكاد يصل 2 كلم عرضا. أما مضيق القنطرة فهو أكثر من 6 كلم، فمن هذه الجهة شيّد الرومانيون ممرّهم البحري، ومن جهة أخرى، تعود له بالذكر التسمية العربية القنطرة أي الجسر، على عكس الرأي الموجود والشائع فإنّ البحر المتوسط ليس مفتقرا لحركات المد والجزر، فنتيجة كتلته الكبيرة بما فيه الكفاية تتمكن الجاذبية القمريّة من أن تجعل له تأثيراته.

لا يوجد في مرسيليا، الجزائر وتونس حركات مد محسوسة، رغم أن واحدة منها تتشكل بخليج قابس. تستطيع فروق الارتفاع نصف اليومية أن تبلغ 1,80م بصفاقس، 2,50م في قابس و2م في مضيق أجيم. تغلق جزيرة جربة خليج قابس من جهة الشرق، وفي اتجاهنا أكثر جهة الشرق نجد من الجهة الأخرى للجزيرة فتحة جزيرة جرجيس، والتي ينفتح عليها ممرّ القنطرة.

يتقلّص ارتفاع حركات المد والجزر إلى 80. 0م، ايضا من جهة أجيم تكون فروق الارتفاع مرتين ونصف مقارنة بجهة القنطرة، وهو ما انجر عنه نتائج مهمة: تتعرض بحيرة بو غرارة عبر أجيم لتأثيرات المد والجزر، أيضا تكون التيّارات في الممرّ عنيفة، الأرضية ليست صخرية، التيارات البحريّة

حفرت خندقا عميقا حيث نسجّل سبرا بأكثر من 20 مترا. إنّ بناء خندق يربط أجيم بالقارة سيكون إنجازا رائعا له عدة مزايا اقتصادية لا متناهية مقارنة بالمصاريف المرصودة، حيث لم يستطع أي مهندس التفكير في ذلك.

حركة المدّ والجزر هي الأكثر شيوعا في معبر القنطرة. يتقلص حجم الحركة ويتبدد على مساحة عرض كبيرة. لم يكن لهذه التيارات البحريّة القوّة الكافية لتقتطع التربة وتحفر قنوات عميقة. لهذا ساهمت حركة المدّ المنخفضة في كشف الكثير من المرتفعات البحريّة. لقد كنت أعلم ذلك، ففي 1916 كنت قد كلفت بدواعي الدفاع الوطني المستوحى من الحرب في أعماق البحار، لدراسة إمكانية استصلاح المنشآت الرومانية. لقد كنت أعلم ذلك، لأنني كنت تردّدت على هذه النواحي مفكّرا في طوبوغرافيتها البحرية، لكني كنت قد اكتشفت أشياء أخرى.

لقد كان من الطبيعي أن يكون همّي الأول هو السير من أقصى الطرف إلى أقصى الطرف الآخر لخط المسلك الروماني، وهو ما لم يكن ممتعا حتى ذلك الحين، وقد تبيّن لي بعد ذلك أن كلّ ما قرأته وسمعته حول الممرّ المعروف كان يصدر عن أناس يجهلونه. كانت الحقيقة باتباع ما هو عادي أيسر بكثير من القيل والقال.

يجب عليّ في هذا المقام أن أفتح قوسا لأقول إنه يوجد بالجنوب التونسي تكوين جيولوجي لانتشاره لا يكوّن بالضرورة عنصر الفرادة. تعترضنا في كل جهة من الجهات وفي كل البلاد تلال كلسية ذات الصخر الصلب .اعتقدنا أنّه يوجد بالمرتفعات البحريّة، ويمكّننا من استخراج الحجارة. وقمنا بتحليل الحجارة وعندما صقلناها ثلاثين، أربعين وخمسين سنتمترا لم نجد إلا تربة طينية. حفرنا بعمق في التربة، فلم نعثر على شيء آخر. لقد حفرت آبار بعمق 30 و40 م في هذا المجال دون أن تختفي الصخرة. لقد طرح تفسير الظاهرة جيولوجيا أو تم بالأحرى السعي لفهمها.

يوجد بالطابق الأرضي، صخر منتشر من نفس التكوين على كامل مساحة عرض ممرّ القنطرة. لقد تمّ بناء الممرّ بملء الفراغات بواسطة الحصى وأعلاها ببناء عادي عرضه حوالي 3 م. يبدو من الطبيعي أن يكون الجولان على هذا الطريق الضيق مقتصرا على المشاة، الفرسان وحيوانات القتال.

قـد أصبح هـذا أكثر بداهة عندما نسـتنتج أن على بعـد 2 كلم من اليابسـة تختفي هذه النوعية من الصخر على عـرض 200 و300م. نجد في هذه الجهـة قناة بعمق 5 و6 م عبرها تمر التيـارات الأكبر للمد والجزر، من جانبي القناة، قطعتا الممر كانتا تنتهيان بنقطتين مازالت قواعدهما المبنية الأولى ظاهرة للعيان -مركز حراسـة واسـتخلاص بدون شـك- كان علينا اسـتعمال مركب لنسلك معبر القناة.

لا توجد تجليّات تجعلنا نفكّر في وجود حاجز كان قد أنشـئ بغرض اجتيـاز القناة، كان الإنجاز هاما جدّا في تلك الفترة وأيضا للغرض نفسـه الذي نتتبعه من ورائها. لم تكن الجزيرة أيضا مرتبطة بشكل كبير مع اليابسة عن طريق معبر بريّ، ولكنّ الطريق البحريّ كان مختصرا كثيرا.

مـن المحتمل أن نكون في أفضل حال بوجود أثر روماني، لأنه لإعادة تهيئة هذا الإنجاز يجب توفر سلطة قادرة على تنظيم مجهود جماعي جدّي. كانت المدينة الأكثر أهميّة في تلك الفترة بالجزيرة توجد قريبة من هناك. كانت تسـمّى مينانكس، نرى أثر ذلك على سطح الأرض، يبدو أنها كانت غنيّة ولكن قراصنة البحر المتوسط جلبوا منذ زمن طويل للبيع أعمدتها الرخامية، منحوتاتها، تماثيلها وفسيفسائها، لم يبق سوى الأنقاض.

كان مصـير المدينـة مرتبطا دون شـك بالقنال التي تغـذي تجارتها. فعندما أصبحت القنال تتداعى نتيجة إهمال الغزاة العرب، تراجع نشـاطها من هذا المعبر لينتشر النشـاط التجاري في كل مكان، عبر مسالك بحريّة. منذ ذلـك الحين أصبحت مينانكس ميتة جوعا، لأنّ المدن في النهاية ليسـت إلاّ مراكز تجاريّة.

كانت لـديّ الفرصة لدراسـة آثـار رومانيّة، تصورها كان سـهلا وتنفيذها لم تعترضه مشاكل حقيقيّة، إنّها إنجازات رهينة التجربة، ولا يمكن أن تكـون غير ذلـك. لم يكن لدى القدمـاء المعرفة الرياضيّـة التي تؤدي إلى التأمل النظري المسـبق وهي من حسـابات المهندسـين المحدثين. لم يكن لديهـم المواد المتطورة كالتي توفرها التطـورات الصناعية بكثرة. الحاجيات الاقتصادية والسياسية التي تعد مطلبهم لم تكن من الضرورات الملحة.

في مـا يخصّ مسـالك التواصل مثـلا إنه من اليقـين أن لمناخها الجاف في شـمال إفريقيا، كان التجوال للمشـاة والفرسـان وحيوانات الحرب يؤمن بواسـطة طرقات واسـعة تتمثل في تركها ببساطة حريّة فتح طريق على أرض عارية. كانت العربات قليلة العدد جدّا حتىّ يشرع في تهيئة أرضيّة الطرقات.

في مـا يهمّ الاشـغال البحريّة، إنّ زيارة إلى قرطـاج تبدو مزعجة. مازال تموضـع حوضي الميناء بارزا جدّا. إنّ أكبر منطقة للتجارة بالمتوسـط كانت تسـتخدم أحواضا وكان حجم الماء فيها غير كاف لميناء صيد صغير في هذه الأيام، فالسفن كانت لها أحجام صغيرة وحجم المعاملات لم يكن له الأهميّة التي تتصورها مخيّلتنا.

عندمـا أرادوا الربـط بالقـارة عن طريق ممـر مبني، يعتبر إنجـازا هاما في تلـك الفترة والـذي يبدو لنا مكلّفـا، فجزيرة مثل جربـة لا تحتوي على اسـتخراج منجمي والذي يمكننا من تقدير درجة الثراء، وبتفحّص الظروف المتعـددة لفلحها، خضع الرومانيون لعدّة مبادئ أو حقائق لا نجدها مطلقا في تصوراتنا المعاصرة.

يمكن أن نجازف بذكر بعض التأمّلات:

1- نعلـم أن روما لم تكن قـوة بحريّة، ينقصها البحّـارة، رغم التطوّر الكبير لشبه الجزيرة الإيطالية فإنّ السكّان لم يستهويهم البحر. ألهمت العقليّة الرّومانية الحكّام بالهاجس الكبير للمسالك البحرية.

2- الإداريـون الأفارقـة ينجزون بسـهولة برامجهم في الأشـغال العامة الريفية. عندما كانت الحرب توفر عبيدا كثرا كان يجب استخدام يد عاملة بدون مناقشة الخاصية المكلفة لبعض الأشغال.

3- الرومان احتلوا الجزء المتوسـطي لإفريقيا في سـبعمائة سـنة. في هذه الفترة الزمنية الطويلـة للهيمنة والتي تخللتها فترات مضطربة، من الممكن أن القلق السـياسي كان قد أعطى في بعض الأوقات أهمية عسكرية لجربة وهو ما برر إنشـاء الطريق. لقد فكرنا نحن بأنفسنا لإعادة استصلاح هذا الطريق القديـم، عندما جاءت الغواصـات الألمانية وأربكت تصدير الفسـفاط عن طريق ميناء صفاقس.

هذا هو الدرس الذي يمكــن تأمّله بعد زيارة القنطرة. هذه التأملات ليســت مطلقة، ليس لها من خاصيّة ســوى مســاهمة منّي في دراســة الأســئلة المتنازع فيها. الماضي مليء بالسراب، إنّه قصيدة. عندما نقارعه بالوقت الحاضر، كذلك عندما نريد ترجمة القصيدة للواقع، نلحظ مباشرة الخلافات، ولكن لتحديد ذلك يجب بحث متأن، والمخيّلة هناك لتظلّل رأينا. إنّ ضعف البشر يكون دائما في رغبتهم في الشرح دون أن يكونوا فاهمين.

**النقد والتعليق:**

يعتبر النص من بين الدراســات الاســتشراقية التي برزت في جذوة الفترة الاســتعمارية منذ القرن التاســع عشر. فقدت فرنســا خلال القــرن الثامن عشر مســتعمراتها في أمريكا والهند إثــر صراعها مع انكلترا لــذا حاولت في مطلع القرن التاسع عشر تعويض ما فقدته لإعادة بناء إمبراطوريتها الاستعمارية فقامت باحتــلال بلدان المغرب لقربها جغرافيا ووفرة مواردها الطبيعية واتســاع ســوقها التجارية. كانــت مرحلة نهاية العشرينات وبدايــة الثلاثينات من القرن الفارط مرحلة هامّة، حيث بدأت فرنســا اســتعمارها الزراعي المبــاشر لتونس منذ بداية مرحلة العشرينات. سياســيا ورغم بداية تجذر الوعي الوطني بنشــأة الحزب الحر الدســتوري التونسي على يد عبد العزيز الثعالبي 1920، إلا أن مطالبه لم ترتق إلى حد المطالبة بالاستقلال بل ظل سقف مطالبه جملة إصلاحات اقتصادية واجتماعية في ظل نظام الحماية. لقد كان اســتعمار البلاد التونســية وتحســس ســبل استثمار خيراتها يمثل الهاجس الوحيد لفرنسا في تلك المرحلة التاريخيّة التي تزامنت مع أزمة 29 الاقتصادية، خاصة وأن جربة نقطة استراتيجية في جنوب المتوسط.

هذه المرحلة الاستعمارية المباشرة قد لا تحجب عنا بواكير السوسيولوجيا الاستعمارية في تونس، وهو ما يفسّر كثافة الدراسات الاثنوغرافية بعد إصدار الإقامة العامّة أمر 13 أكتوبر 1883، الذي يجبر الضباط المتواجدين في مختلف الجهــات على إعــداد تقارير حول المجموعة التي يعمل بهــا كل ضابط. وقد اعتمــدوا في كتابــة تقاريرهم على المصادر المكتوبة والشــفوية، كل ذلك من أجــل فهم هذه المجموعات لتســهيل الســيطرة عليهــا.[1] تمكنت الإدارة

1-نقلا عن لبيض (سالم)، مجتمع القبيلة: البناء الاجتماعي وتحولاته في تونس، دراسة في قبيلة عكارة، المطبعة المغاربية، تونس 2006 ص 51.

العسكرية من تجميع 134 تقرير، تم تصنيفها تحت تسميات مختلفة: مدينة، قرية، قيادة...الخ.[1]

المرحلة الموالية انطلقت مع تأسيس معهد قرطاج الذي أصدر المجلة التونسية على أيدي برتولون سنة 1897.[2]

وفي مرحلة ثالثة وبعد مرور خمسين سنة على الاحتلال الفرنسي بدأ اصدار مجموعة من الكتب يشرف عليها الضابط شافان، « Les historiques des affaires indigènes » وقد تزامن إصدارها مع تأسيس مركز الدراسات العليا الإسلامية الذي احتوى على عديد المذكرات العلمية.

النص يمكن إدراجه ضمن الدراسات التاريخية حيث تغلب عليه منهجية توثيقية. إذ عمد المؤلف إلى استعراض صورة جربة من خلال المشاهدة المجرّدة وكذلك بالعودة للمصادر المكتوبة. والبارون هو من بين مجموعة من أهل الفكر الموفدين للجنوب التونسي[3].

يبدأ النص بوصف لجزيرة جربة على المستوى الطبيعي حيث الأشجار المثمرة: زياتين ونخيل وأشجار الياسمين الورد والعبقر والخوخ واللوز والمشمش والتين. وكذلك خضروات وغلال: فول، عدس، لوبياء، بطيخ، دلاع، طماطم، باذنجان، خيار، لفت، جزر. إضافة إلى تضاريسها التي تتمثل في سهول منبسطة وكذلك وفرة مياهها. على أن المؤلف لا يتورع في ابراز هامشية الفلاحة في جربة-غراسة الزياتين- مقارنة بصفاقس. ثم يواصل استعراضه للمميزات شجرة النخيل التي يراها نشازا طبيعيا في بيئة بحرية ويعلل ذلك بقوله نستطيع أن نجرّب غرس دجلة النور في أطراف البحر، سوف لن تعطي شيئا في الجوّ الرطب على الساحل.

ثم ينتقل في مرحلة ثانية إلى الحديث عن الارض والسكان، حيث يستعرض نمط حياة السكان رجالها ونساءها، وأدوارهم داخل المجتمع

1-نفسه، ص 52.

2- Pouillon (François), Albergoni (Giani), Le fait berbère et sa lecture coloniale : l'extrême sud tunisien, Cahiers Jussieu N°2, université de Paris VII 1976, p.353.

3- Capitaine Maquart, « Étude sur la tribu des Haouïa », dans *Revue Tunisienne*, 30, 2e trimestre, 1937. Louis (André), *Tunisie du sud : Ksars et villages de crêtes*, Paris, 1975.
CARTON (Dr), Oasis disparues [province de l'Arad], *Rev. tun.*, 2, 1895

الجـربي: فالرجـال هم فلاّحون وصيّـادون وخزّافون والنسـاء يغزلن الصّوف ويصنعن البرنس والأغطية التي تباع في كافة أسـواق تونس. ثم يبرز المؤلف نمط السـكن بجربة في الوسط الحضري الذي يقوم على غرف متناثرة داخل المجال أو خيام من وبر الجمال يعيش تحتها سكان بدو.

كما نراه يطرح قضية الماء:

المـاء بالجزيرة بالنسـبة إلى الكاتب ليس بالصالـح للشراب ولا لطبخ الخـضروات وهو مـا يفسّر في نظره انتشـار الأحواض منذ القديـم لجمع مياه الأمطار، وقد يعود تحقيق الاكتفاء الذاتي من الماء إلى اعتماد تقنيات حديثة في تجميع المياه.

بعد هذا المرور السريع على الخصائص البشرية والطبيعية للجزيرة يطنب المؤلف في الحديث على القنطرة، حيث يثني عليها باعتبارها إنجازا رومانيا خالصا قـام بربط الجزيرة باليابسـة. يتعرض في البداية لموقعها حيـث تنتهي من جهة الغرب برأس أجيم، ومن جهة الشرق نجد القنطرة التي تمتد على 7 كلمترات تغلق خليج قابس من جهة الشرق. كما يدرس تكوينها الجيولوجي ويشـير في الأثناء إلى أنّ إعادة تهيئة هذا الإنجاز يتطلّب إرادة سياسية فرنسيّة.

أيضـا يتعرض المؤلف للتيارات البحريـة وحركات المدّ والجزر حيث يتقلص ارتفـاع حركات المد والجزر إلى 80. 0م، أيضا من جهة أجيم تكون فـروق الارتفاع مرتـين ونصف مقارنة بجهة القنطرة، وهـو ما انجر عنه نتائج مهمـة: تتعرض بحيرة بو غرارة عبر أجيـم لتأثيرات المدّ والجزر، أيضا تكون التيّارات في الممرّ عنيفة. يدرس المؤلف طريقة البناء، إذ يوجد بالطابق الارضي، صخر منتشر من نفس التكوين على كامل مسـاحة عرض ممرّ القنطرة. لقد تمّ بناء الممرّ بملء الفراغات بواسطة الحصى وأعلاها ببناء عادي عرضه حوالي 3 م. يبدو من الطبيعي أن يكون الجولان على هذا الطريق الضيق مقتصرا على المشاة، الفرسان وحيوانات القتال.

يشير المؤلف في النهاية إلى الأهمية التاريخية للممرّ اقتصاديا باعتباره الرئة التي تتنفس بها الجزيرة وأن تراجع أدوار الممرّ أيام حكم المسـلمين هو سبب من أهم أسباب أفول الجزيرة.

إن هذا الطرح أو الدراسة الشاملة للجزيرة ومؤهلاتها الطبيعية والبحث عن سبل لإعادة إحياء بنيتها وتثمير مقدراتها على أهميتها ود قتها لا يمكن إخراجها في تقديرنا عن اعتبار إقامته نوعا من الملاحظةِ العلمية لا تخرج عن السياق الاستعماري فهي ليست مصدرا تاريخيًّا بريئا. وهو ما قد يدفعنا إلى إعادة طرح النظرية الاستعمارية خاصة وأن من المستشرقين منذ القرن التاسع عشر مثل شاتوبريان[1] ولامارتين[2]، قد صوّروا الشرقَ مكانا ملائما للمطامع الفرنسية الاستعمارية، فإنتاج هذه الكتابات قد لا يكون سوى محاولةٍ مسعورةٍ لمعْرِفة ما يمكن استثماره واستعماره. فهو حسب البعض استشراق يحرض على الاَستعمار.[3]

ينبغي التعامل مع نصوص الرحالة بموضوعية تامة، والابتعاد عن انتقائية النصوص، لأنها تخدم أفكارا مسبقة عند الباحث، وتؤدي إلى نتائج مغلوطة. ولكن إذا كان النَصَّ لا يَذْهبُ فقط في اتّجاهٍ واحد أو مبني على جماليات شخصيّة، فما الذي يدفع المؤلف إلى تلبيس نصّه بأفكار متناثرة ومشحونة بشكل كبير إيديولوجيا؟

لقد كانت الأدبيات الفرنسية المتعلقة باحتلال بلدان المغرب لتختلف من فترة إلى أخرى حسب تطوّر موازين القوى وحسب خصوصيّة الظرفية. وكانت صورة المغاربي-الجزائري خاصة- لدى المستعمر الفرنسي تجمع بين العنصرية والاحتقار والتحدي فهو أحيانا متوحش وطورا متخلف وأحيانا أخرى مهزوم ومهزوز، كما يوصف أيضا بالثائر والمغامر خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. منذ بداية النص يوسم البارون المجتمعات الشرقية بالخرافة والأساطير، فمخيال الناس في نظره لا يخلو من نظرة رومنسية حالمة تتماهى كثيرا مع الأسطورة. هذه الاسطورة التي تملأ عالم الشرق في نظره. هذا الموقف يدفعنا إلى تحليل الخطاب الغربي وكشف الطرائق التي سلكها الأوروبيّون في رؤيتهم وتصويرهم للأجناس «الأخرى» في الشرق وخاصة

1- الطريق من باريس إلى القدس، مؤلف نشر سنة 1811، يتناول مراحل رحلة بريان بين 1806-1807.
2- الرحلة إلى الشرق، نشرها 1835، وكان هذا المؤلف يصف رحلته للبنان، فلسطين وسوريا، خلال السنَواتِ 1832-1833.
3- Rana Kabbani, Imperial Fictions: Europe's Myths of Orient (London: Pandora, 1994), p. 10. رنا قباني، في كتابها أدب الخيال الإمبريالي: أساطير أوروبا حول الشرق (1986)، تتبنى أطروحة سعيد في الاستشراق، وترى بأنّ قصص الرحلاتِ الغربية حول الشرقِ كانتْ «جزءا من استشراق حرض على الاستعمار».

جنوب المتوسط. وقد يرى إدوارد سعيد أيضاً بأنّ الأيديلوجيا الرئيسية للاستشراق هي الإيمان بالاختلاف المطلق والمنظّمَ بين الغربِ والشرقِ، أو كما يَضعُه هو: «العالم مكوّن من نصفين غير متكافئين: الشرق والغرب.[1]

فالشرق يوصف بشكل عام في أدب الرحلة كمكان طبيعي «للحيل السحريّة»، وبأنَّ هذا الوصف قادَ الغربيين إلى الإعتقاد أن المكان «الملائم للتفكير العقلي» هوالغربُ، وأن المكان «الصحيح للسحرِ» هو الشرقُ.

يرى إدوارد سعيد بأنّ كلا من بلفور، وكرومر، على سبيل المثال، وظف العديد مِنْ الألفاظ للتعبير عن هذا الاختلاف. «فالشرقي غير عقلاني، وسَاقِط، وطفولي؛ بينما الأوروبي عقلاني، ومستقيم، وناضج».[2]

يذهب البارون في نفس التوجه : «لقد انتشروا بعيدا في البلدان العشوائية أين تتطابق جيدا مع الطبيعة الرعويّة والكسل المتأصّل في مقاتليهم». وهو يتماهى كثيرا مع اللورد كرومر الذي يصف العرب على أنهم سُذّج، «مجردون مِنْ الطاقةِ والمبادرةِ»، ويصفهم بأنهم «خاملون ومريبون، طباعهم تختلف كليا عن طباع العِرْق الأنجلوسكسوني ومجبولون على التملقِ المفرطِ، والخداع، والقسوةِ على الحيواناتِ؛ والكذب.[3] المغرب بالنسبة إلى كانيتي مكان للتزوّد بصورٍ لانهائيةٍ مِنْ الفاقةِ والمرضِ والسحرِ والخُرافةِ والجنس. وكأنَّ عينه كَانتْ تَبْحثُ عن حالاتِ الاختلاف التي يُمْكِنُ أنْ تثير في جمهوره، صدمة، وقرَفًا، وضِحْكًا، أو شفقة[4]. بل توغل بعض النصوص في تصوير العرب على أنهم جنسٍ بَشِعٍ، وصُوِّروا على أنهم «سودٌ، برؤوسِ كِلابٍ، وقبيحون».[5]

بعد جلده الجنس العربي نرى المؤلف بخلفيّته الدينية يتعرض للدين الإسلامي في ذاته باعتباره دينا تقليديا غير متجدد «لقد صبّ الإسلام في عقول القدريين أفيون الحياة الداخلية، ضد كل تطور». هذه النظرة تنسجم كثيرا مع النظرة الاستشراقيّة التقليدية بصفة عامّة، بارون لا يختلف عن لين الذي

1- Edward Said, Orientalism (London: Penguin Books, 1995), p.12.

2- Ibid., p.40.

3- Evelyn Baring Cromer, Modern Egypt, 2 vols (London: Macmillan, 1908), II, p. 146-167.

4- Rana Kabbani, Imperial Fictions: Europe's Myths of Orient, op. cit., p. 29-30.

5- Ibid, p. 14.

رسخ بشكل دوغماتي العديد مِنْ المفاهيم الغربية التقليدية حول الشرقيين في كتابه، فقد اعتبرَهم «مؤمنين بالخرافات، وكسالى، ومنغمسين في الشهوات، ومُتعصّبين دينيا...»[1]

في مقابل هذه الصورة القاتمة التي يحملها بارون عن العرب والمسلمين، لا يخفي افتتانه بسكان جربة ويقدم لنا أمثلة جيدة لهذا البُعدِ الجمالي وهو يصف أحد سكان جربة:

«عيون حلوة وصافية، الشفة جذابة. ساقاه عاريتان مصقولتان من الشمس، تبرزان من سروال قصير ظم تحت الركبة جسده غط بمعطف أصهب له شريط مضفر بالأبيض، نسجته زوجته غليظا، على أدوات قديمة».

ثم نراه يضيف:

«رجل مشابه مرّ من قبل بنفس الطريقة أمام الجندي المسلح القادم من قرطاج، جندي الفيلق القادم من روما، الفارس المتباهي القادم من بلاد العرب، الإنكشاري القادم من اسطمبول، قرصان البحر الذي كان يتبع بربروس. كل هؤلاء الرجال الأشداء تكلموا بعلوّ، طلب للمال والقوة، لقد فرضوا إرادتهم بالسيف، كما نقولها اليوم في على سواحل الأفريقية كحجة قاطعة. لكن القروي الوجل والمستسلم كان يحمل في ذاته القوة الهادئة للمستقرين العنيدين، أكثر حيوية من تراكم للمجموعات البشرية. إنه نفسه الذي استمر...»

إن استقراء لنصّ بارون يقف عند تعاطف له مع السكان المحليين للجزيرة، فما الذي يدعو إلى تعدد للأصوات في نصّ واحد؟ وهل هي ازدواجية الخطاب الاستعماري؟

قد يكون من المفيد التذكير في هذا المقام أن الأدبيات الاستعمارية ما انفكت في القرن العشرين تعمد في دراساتها الأنتربولوجية إلى تقسيم المجتمعات المغاربية إلى مجموعتين بشريتين: بربر وعرب. وقد استندوا في ذلك على النظرية الخلدونية التي تقوم على اعتبار المجتمع الافريقي الشمالي ينقسم إلى بربر مستقرين

1–Leila Ahmed, Edward W. Lane: A Study of his Life and Works and of British Ideas of the Middle East in nineteenth Century (London: Longman, 1978), p. 1.

وعرب رحّـل. هذه الثنائية دفعت بجل هذه الكتابات إلى التركيز أكثر على الجنس البربري وتصويره بشـكل إيجـابي مقارنة ببقية العنـاصر وقد لا يتورع هؤلاء الكتاب في إبراز مواقفهم الرومانسـية، وهم ما لا يخفيه بارون في نصه في عدة المناسبات : «الذي ألف شـمال إفريقيا يعرف من النظرة الأولى البربر...يمرّ اليوم (البربري)، الوردة فوق الأذن بالطريقة البربرية القديمة».

لقـد احتلّت المسـألة البربرية أهمية بالغة في السياسـة الاسـتعمارية بناء إلى ما وفرته السوسـيولوجية الاسـتعمارية من تقارير وحقائق كانت ترتكز أساسـا على اعتبار البربر أغلبيّة للسكان في المغرب العربي، محافظين على نقاء دمهم وخصوصيتهم الثقافية مما سـيقودنا اثنيا حسب الجابري[1] إلى اقرار التقابل والتناقض بين السكان البربر والسكان ذوي الاثنية العربية.

يذهب الباحث المغربي عبد الصمد الديالمي إلى أن إرادة التقسيم بصفتها المحرك الأساسي للسياسة الاستعمارية هي التي أدت إلى رسم شخصية بربرية لها خصوصيتها: لهجة خاصة وعرفا مسـتقلا وتنظيـما اجتماعيا. فالبربري يرمز إلى الطيبـة البدائيـة والشـجاعة والاخلاص والى حب العمـل. إنه الخير كله مقابل الشرّ العربي الإسـلامي[2]. من هذا المنطلق يشرّع المستعمر الفرنسي لنفسه حماية البربري المضطهد الذي حافظ على استقلاليته رغم التراكم الاستعماري وخاصة منه العربي الاسـلامي. وهي تندرج ضمن خيار استراتيجي استعماري يقوم على أساس ابراز الخصوصية البربرية للمجتمع المحلي واستمرارها وعزلها عن محيطها البشري والتاريخي وتوظيفها ضمن اسـتراتيجية استعمارية تقوم على الفصل والتفريق من أجل السيطرة.

على أن المؤلف يسعى لإبراز بكارة أرض جربة ويطرح بشكل ذكي كيفية تطويع مقدراتها البشرية والطبيعية لإعادة هيكلتها وامتلاك السلطة عليها في فترة تشـهد تسابقا لاقتسـام المجالات الحيوية في العالم، وطبقاً لنظرية فوكـو بأنّ علاقات السـلطة وثيقة الصلة بخطاب الإنسـان، لأن «علاقات

1- الجابري (محمد عابد)، المغرب المعاصر، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر الدار البيضاء، المغرب 1988 ص84.
2-الديالمي (عبد الصمد)، القضية السوسيولوجية، إفريقيا الشرق 1989، ص 46.

السلطة لا يمكن أن تكون قائمة متماسكة بذاتها، ولا يمكن أن تكون قابلة للتطبيق دون إنتاجِ الخطاب، وتراكمِه، ونشره، وتوظيفه.»[1]

في نفس السياق، كانت فرنسا كقوة استعمارية قوية بالعدة والعتاد تسعى إلى تعبئة الجمعيات والمؤسسات العلمية بغرض القيام بالاستكشافات الاستعمارية ولعل جمعية مونتوبان ذات التوجه التراثي المحلي، إحدى هذه المؤسسات العلمية التي عهدت لها مهمة دراسة خصوصيات الجزيرة.

فما الغاية من هذا التوجه والتدقيق العلمي؟

قد لا يبدو عسيرا على الفهم، خاصة وأنّ التجربة في تونس-جربة خاصة- هي استنساخ لما حصل في الجزائر إذ يورد الراهب الفرنسي دوفوكو انتحاله لشخصية اليهودي 1883 مستعينا بيهودي حقيقي مترجم، حيث استطاع استكشاف جبال المغرب الأقصى وصولا للتخوم الصحراوية الجنوبية، ثم تسلل إلى الجزائر ليقدم مذكراته للجمعية الجغرافية الفرنسية التي كانت تتولى مهمة الاستكشافات الاستعمارية. ويجيب ريني مونيي عن الهدف من هذه الحملات العلمية وتنظيم الدراسات الاثنوغرافية بقوله أنها تأتي تأسيا بتجربة الولايات المتحدة الأمريكية من جهة، ولما في تنظيم هذه الدراسات من غايات مادية تطبيقية من جهة أخرى، باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ وللحكم. إذ يرى مونيي أن الجرائم البشرية والأخطاء السابقة في حق الشعوب المستعمرة هي نتيجة الجهل بخصائص هذه المجتمعات وطرق تفكيرها وعدم كفاءة وكلاءها[2].

**خاتمة:**

النص هام على اعتبار أنه نتاج الملاحظةِ العلمية رغم استغلاله لخِدْمَة أغراض سياسية استعمارية، حيث انتقل من معناه الأكاديمي المحض (كنظام للمعرفةِ) إلى أنْ أصبح مرادفا للهيمنة، إذ نرى المؤلف يطنب في الحديث عن مظاهر التعمير بالجزيرة خاصة في الفترة الرومانية من خلال الفساقي والقنطرة.

1- Michel Foucault, Power / knowledge: Selected Interviews and other Writings 1972-1977, ed. by Colin Gordon (New York: Pantheon Books, 1980), p.93.

2- Maunier (René), « Programme d'une sociologie algérienne », Mélange de sociologie africaine, 1928, p. 36-53.

هذا التقرير لبارون لا يخلو من خلفية ايديولوجيّة، فهو يربط ضمنيا بين التاريخ الروماني وموجة الاستعمار الفرنسي، التي أخذت على حد تعبير لي بوف مكان الاستعمار الروماني، ويعني منطقة الأمبوريا أي مناطق الغراسات الساحلية والموانئ والمرافئ بالجنوب التونسي.[1]

يمكن القول أن الأدبيات الاستعمارية أو أدب الرحلات جنس أدبي، تتعدد فيه أصوات المؤلف، ولا تسير في اتجاه واحد. وتعدديّة الأصوات هذه ملحوظة، مثلا، في كتابات الرحالة الأوروبيين حول شمال إفريقيا والشرق الأوسط، لا على مستوى مجموعة مختلفة من الرحالة فحسب، وإنما على مستوى الأعمال المختلفة للرحالة الواحد. إذ تختلف الصور التي يرسمها الرحالة حول ثقافات الشعوب، بين سلبية وإيجابية، حسب اختلاف البلدان التي ينتمون إليها، والأزمنة التي ارتحلوا فيها، والخلفية المرجعية الخاصة لكل رحالة. إذ لا يمكن أيضا وضع جميع الرحالة الأوروبيين في سلة واحدة، واتهامهم بالعمالة للاستعمار، فقد أثبتت الدراسات أن بعض الرحالة كانوا مستقلين في أهدافهم ورحلاتهم ومشاعرهم.[2] من هذا المنطلق ينبغي علينا في دراسة أدب الرحلات أن نتجنب ثنائية المُسْتَعْمِر-المستعمَر وشرق-غرب، وأن نفسح المجال لنقد الذات، إذ توحي لنا الأدبيات الاستعمارية أو أدب الرحلة بحجم أخطاءنا. كما ينبغي التعامل مع نصوص الرحالة بموضوعية تامة، والابتعاد عن انتقائية النصوص، لأنها تخدم أفكارا مسبقة عند الباحث، وتؤدي إلى نتائج مغلوطة، كما أن التعميمات الجارفة،والتحليل الأحادي الجانب لنصوص الرحلات لا يتسع لتعددية الأصوات فيها، لذا فإن تتبع الجوانب السلبية فقط، أو رصد الجوانب الإيجابية فقط، في هذه النصوص، يؤدي إلى نتائج غير موضوعية تربك الذات في علاقة مع الآخر سياسيا واجتماعيا وحضاريا، ويشّذ المصير عن القاعدة.

1- Le Bœuf, «La colonisation romaine de l'extrême sud tunisien», in, Revue Tunisienne 1904, p.364-365.

2- Thomas Cogswell Upham, Letters Aesthetic, Social, and Moral, Written from Europe, Egypt, and Palestine (Philadelphia: H. Longstreth, 1857), p. 346.

لا يوجد عربي من المدينةِ ولا مِنْ الصحراء، حسب مشاهداتي، يُمْكِنُ أَنْ يُتَّهمَ بالظلم، أو الوَحْشيَّة، أو الجحود، كما يتهم العرب دائما؛ ولا يصح أن نحكم على الرجال من مشاهدات الآخرينَ. ولكي نحكم عليهم بدقّة، يَجِبُ أَنْ نَعْرفَهم. لكنّ المعرفةَ نتيجةُ الاتصال والثقةِ. وعليه، لكي نعْرفَهم، يَجِبُ أَنْ نُحبَّهم.